الابنـــان

قصة قصيرة لبرتولت برشت

ترجمها عن الالمانية د · علي يحيي منصور
جامعة بغداد ـ كلية الآداب

عندما اوشكت الحرب الهتلرية على الانتهاء في كانون الثاني سنة ١٩٤٥ رأت فلاحة من تورنجن حلما بأن ابنها يناديها في الحقل · وخيل لها حين خرجت الى فناء الدار وهي تقاوم سلطان النوم ، بأنها رأته عند المضخة يشرب الماء · وعند مخاطبتها له ، عرفت بأنه كان احد اسرى الحرب الروس الشباب وهو يؤدي ما عليه من اعمال السخرة في فناء الدار · وبعد مرور بضعة ايام اختبرت الفلاحة حدثا غريبا · فحين اتت الاسرى بطعامهم في غابة قريبة كانوا فيها يجتثون جذور الاشجار المقطوعة · ولما همت بالعودة حانت منها التفاتة من فوق كتفها فوقع نظرها على نفس الاسير الشاب وهو يدير وجهه بخيبة امل نحو اناء الحساء الذي ناوله اياه احدهم ، وعلى حين غرة تحول وجهه الى وجه ابنها · وتكرر امامها في الايام التالية تحول وجه ذلك الانسان الشاب الى وجه ابنها ، كان الوجه يظهر لبرهة ولا يلبث ان يتلاشى بسرعة · ثم مرض اسير الحرب ، وظل طريحا في مخزن الغلال دون عناية ، فشعرت الفلاحة بحافز داخلي متصاعد يحثها على احضار الطعام له ليعيد القوة الى اوصاله، الا ان اخاها منعها من ذلك ،وهومن عجزة الحرب وكان يشرف على شؤون الدار وقد اعتاد على معاملة الاسرى بخشونة وخاصة في ذلك الوقت بالذات حين اختلط الحابل بالنابل · وبدأت القرية توجس الخيفة من الاسرى · ولم تتفق الفلاحة معه في حججه ولا كانت هي نفسها

مقتنعة بأن من العدل تقديم العون الى بشر ادنياء من امثال اولئك الذيـــن سمعت عنهم اشياء رهيبة وكانت تعيش في رعب وتفكر بما قد يصنعه الاعداء بولدها الجندى على الجبهة الشرقية ٠

ولم تكن قد نفذت نيتها المتذبذبة بأن تساعد ذلك الاسير في وحشته ، حين فاجأت في احدى الاماسي مجموعة من اولئك الاسرى وهم يتباحثـــون حرصا على سريته ٠ وكان الشاب بينهم يرتعش كمحموم وقد تملكه بالذات رعب شديد حين رآها ، ربما لوهن صحته ، وفي أثناء هذا الموقف المرعـب بحماس في البستان المغطى بالثلج ، حيث عقدوا اجتماعهم رغم البرد القارص حدث التحول الغريب مرة اخرى حيث صارت تنظر في وجه أبنها وقد انتابه الذعر ٠ وشغل الامر اعماق فكرها ٠ ورغم انها اخبرت اخاها عن اجتمـاع البستان ، كما يفرض عليها الواجب ، الا أنها عقدت العزم على ان تناول الشاب قطعة مملحة من فخذ خنزير اعدتها له خصيصا ٠ وظهر ان ماعزمت عليه عسير التنفيذ جدا ومحفوف بمخاطر جسيمة ، شأن كل عمل طيب ايام الرايخ الثالث ، فهي بعملها ذلك تجعل اخاها نفسه عدوا لها وأنها لم تكن تثق حتى بالاسير ٠ ومع ذلك فقد افلحت فيما ارادت ٠ الا أنها اكتشـفت بذلك بأن الاسرى عازمون حقا على الهروب ، لتفاقم الخطر عليهم يوما بعد يوم نتيجة لزحف الجيش الاحمر وخوفهم من ان يرحلهم نحو الغـــرب او يسحقهم ٠

ولم تكن الفلاحة بقادرة على رفض بعض رغبات الشاب ، الذى يرتبط بها من خلال تلك الخبرة العجيبة ، رغباته التى كان يفهمها اياها بالايماء او بما يعرف من نتف العبارات الالمانية ، وهكذا وجدت نفسها وقد تورطت في خطط هروب الاسرى ٠ هيأت له سترة ومقصا كبيرا لقطع المعادن ٠ ومن الغريب ان التحول توقف منذ ذلك الحين ، واستمرت الفلاحة في مساعـدة

الشاب الغريب نفسه · وفي صباح يوم من ايام اواخر شباط صعقت الفلاحة حين طرق عليها شباكها ووقع نظرها من خلاله على وجه أبنها · وكان هذه المرة ابنها الحقيقي · كان يرتدي بزة فرقة الصاعقة الممزقة · وكانت وحدته قد أبيدت · واخبرها بأن الروس باتوا على بعد بضع كيلومترات من القرية ، وان عليها ان تخفي امر وصوله · وعقدت الفلاحة مع اخيها وابنها مايشبه مجلسا عرفيا في احد اركان الطابق العلوي من الدار وقرروا القضاء على أسرى الحرب قبل كل شيء خشية ان يكونوا قد شاهدوا رجل الصاعقة او يفضحوا فيما بعد المعاملة السيئة التي كانوا يلاقونها · وكان على مقربة من المكان محجر ، واصر رجل الصاعقة على استدراج الاسرى اليه والقضاء عليهم واحدا بعد الآخر والتخلص من الجثث هناك ، على ان يمنح الاسرى في ذلك المساء مقادير من الخمر حتى يكون وضعهم ملائما في اللحظة الاخيرة · وادعى الاخ بأن الامر لن يثير شكوكهم لانه كان قد اتفق مؤخرا مع الخدم على معاملة الروس معاملة طيبة ، وحين اكمل رجل الصاعقة الشاب وضع الخطة وجد ان امه ترتعد خوفا · وقرر الرجال بألا يسمحوا لها بعد الآن بالاقتراب من مخزن الغلال بأي حال من الاحوال · وهكذا ظلت تنتظر الليلة وقد ملأ الذعر قلبها · والظاهر ان الروس تقبلوا الخمر شاكرين وسمعتهم الفلاحة يغنون في سكرهم أغانيهم الحزينة · الا أن الاسرى كانوا قد تركوا مخزن الغلال حين وصل الابن الى هناك في حوالي الساعة الحادية عشرة ·

لقد كانوا قد تظاهروا بالسكر واقنعتهم غرابة المعاملة اللطيفة الجديدة التى ابداها نحوهم أهل البيت بأن الجيش الاحمر لابد آت عن قريب · وقد وصل الروس فعلا خلال النصف الثاني من تلك الليلة ، وكان الابن منطرحا على سطح الدار وهو سكران ، بينما سعت الفلاحة وقد تملكها الفزع الى حرق

بزة الصاعقة العائدة له · كان حتى أخوها قد سكر ، فأضطرت هي الى أستقبال الجنود الروس بنفسها وتقديم الطعام اليهم · قامت بذلك وقد تحجر وجهها · وفي الصباح التالي غادر الروس المكان وواصل الجيش الاحمر زحفه في التقدم الى الامام وطلب الابن وقد شحب لون وجهه مزيدا من الخمرة واقسم انه قد عزم على شق طريقه والالتحاق بالوحدات الالمانية المنسحبة لكي يواصل القتال · ولم تحاول الفلاحة ان توضح له بأن مواصلة القتال تعنى الهلاك المحقق والقت بنفسها في طريقه كمحاولة يائسة لمنعه من الذهاب · فرمى بها على القش · وحين نهضت من سقطتها احست بأنها تمسك بقضيب خشبى في يدها ، فرفعته عاليا وهوت به على الهارب المسرع فطرحته ارضا ·

وقبل ظهر ذلك اليوم شوهدت الفلاحة تقود ساحبة وهي تدخل الى مقر الحاكم العسكرى الروسي في القرية الكبرى المجاورة لتسلم له ابنها كأسير حرب وقد شدت وثاقه بالحبال وهى تحاول ان توضح الامر للحاكم عن طريق المترجم بأنها انما اقدمت على ذلك بغية ان ينفذ بجلده ·